خاتمة الدراسة

من خلال استعراض فلسفات الإعلام الوضعية المعاصرة استعراضاً نقدياً في ضوء المقدمات التي أفرزنها، ومقارناً مع فلسفة الإعلام الإسلامي والمقدمات التي أنبنت عليها، يمكن الادعاء أن هذه الدراسة تمكنت من التوصل إلى نتيجة أساسية هي: عدم إمكانية نقل أي من فلسفات الإعلام الوضعية أو أجزاء كاملة منها من الأرضية المعرفية التي أفرزتها إلى الأرضية المعرفية الإسلامية، وأن اقصى ما يمكن الاستفادة به من هذه الفلسفات لا يتجاوز بعض الوسائل والاساليب التي ابتكرتها لزيادة فاعلية الاداء الاعلامي، والتي أثبتت فاعليتها في أرض الواقع، والتي لا تتنافى مع أي طرح من طروحات الأرضية المعرفية الإسلامية.

وتعد هذه النتيجة الهدف الاساسي الذي سعت هذه الدراسة سعياً حثيثاً للوصول إليه في محاولتها للتصدي للإشكالية التي تتمحور حولها، والماثلة في عدم وجود حكم قائم على أسس منطقية قوية حول مدى إمكانية نقل أي من فلسفات الإعلام الوضعية أو أجزاء منها من الأرضية المعرفية التي أفرزتها إلى الأرضية المعرفية الإسلامية. وقد أنبنت هذه النتيجة العامة على عدد من النتائج الفرعية، بعضها يتعلق بطبيعة هذه الفلسفات، والبعض الآخر يتعلق بطبيعة الأرضية المعرفية الإسلامية المراد الحكم على مدى إمكانية نقلها إليها.

وفيما يلي نعرض لهذه النتائج، ونليه باستعراض أهم أوجه التميز - التي أثبتتها الدراسة- لفلسفة الإعلام الإسلامي وفلسفات الإعلام الوضعية، وذلك بإيجاز حتى لا يعيد الباحث ما سطره عبر صفحات هذه الدراسة.

أولاً: نتائج تتعلق بطبيعة الفلسفات الإعلامية الوضعية

تتمثل جماع هذه النتائج في نتيجة عامة هي: قصور الكثير من طروحات فلسفات الإعلام الوضعية المعاصرة، وذلك كنتيجة لقصور المقدمات التي تشكلت على هداها، سواء المقدمات الأساسية التي شكلت الملامح العامة لجميع هذه الفلسفات وهي المتمثلة في مقولات الكوزمولوجيا العلمانية، أم المقدمات المباشرة التي شكلت الملامح الدقيقة لهذه الفلسفات، وهي المتمثلة في مقولات الفكر الاجتماعي، وتتمثل الملامح العامة لقصور هذه المقدمات فيما يلي:

أ - ملامح قصور المقدمات الأساسية لفلسفات الإعلام الوضعية

المتأمل في هذه المقدمات وهي المتمثلة في مقولات الكوزمولوجيا العلمانية (مسلماتها وغاياتها) يجد أنها:

- فيما يتعلق بالمسلمات، أنبنت على مسلمة ضخمة هي «عدم وجود إله فاعل» وهذه المسلمة - في جانب منها - لا تعدو ان تكون رد فعل طبيعي لما تعرض له العقل الغربي من اضطهاد وكبت على يد الكنيسة التي كانت ترى في نفسها الأمينة على الدين المسيحي؛ مما حدا به لا إلى الخروج على الكنيسة فقط، بل إلى الخروج على الدين المسيحي برمته بل وكل الأديان، بما فيها الدين الإسلامي الذي يخلو من أي تناقض عقلي، ويجيب على كل الأسئلة العقلية التي كانت ترتعد الكنيسة منها، غير أن أغلب ملامح الدين الإسلامي وصلته مشوهة. ومن ثم كان من الطبيعي أن يضع هذا الدين مع باقي الأديان في سلة واحدة.

كما أن هذه المسلمة انبنت من - ناحية أخرى - على منطق قاصر ينكر كل ما لا يستطيع إثباته، وقد كان من الطبيعي ألا يتمكن العقل الوضعي من العثور على إله غير مادي بأساليبه البحثية التي لا تؤمن إلا بكل ما هو مادي ومحسوس. ومن ثم لم يكن أمامه بد - اعتماداً على هذا المنطق - من إنكار وجود إله من أساسه.

وفي أحسن الأحوال افترض أنه إذا كان موجوداً فهو متعال، وليس له بخلقه علاقة تذكر. وقد دعم العقل الوضعي إنكاره لوجود إله ببعض افتراضات علم الطبيعة عن أزلية الكون وأزلية المادة وتحرك الكون بقوانين ثابتة وعدم حاجته - من ثم - إلى محرك، وما إلى ذلك من افتراضات تهاوت على يد علم الطبيعة نفسه في القرن العشرين.

وقد كان من الطبيعي أن يؤدي الايمان بفرضية كهذه إلى تجريد الوجود البشري من أي حكمة أو علة، ويجعل الحياة كلها ضرباً من العبث.

وقد انبنى على هذه المسلمة نتيجتان طبيعيتان هما «عدم وجود حقيقة علوية مطلقة»، «وعدم وجود حياة أخروية» وعلى ضوء هاتين النتيجتين أو «المسلمتين الفرعيتين» تشكلت غايات الكوزمولوجيا العلمانية، وتشكلت طروحاتها حول السبل المثلى لبلوغ هذه الغايات والتي تمثلت في مختلف النظريات الاجتماعية التي ابدعتها والتي مثلت المقدمات المباشرة التي شكلت ملامح فلسفات الإعلام الوضعي.

- أما فيما يتعلق بالغايات التي طرحتها هذه الكوزمولوجيا، فلم يعد هناك أمام العقل - بعد أن أسقط الحياة الآخرة من حسبانه، في ضوء المسلمات التي انطلق منها - من البحث عن غاية عليا بديلة وفي حيز هذه الدنيا يعلل بها الوجود البشري بأسره، ويعطي بها لوجود الإنسان معنى. والواقع أن العقل لم يتمكن من العثور على مثل هذه الغاية، لأن استبعاد وجود حياة أخرى أبدية - وهي التي يمنحها الدين - يجرد التاريخ البشري كله من أي معنى، كما أن فكرة وجود غاية عليا لحياة الإنسان في هذا الوجود لا يمكن الإجابة عليها وكما قال سيجموند فرويد[1]: «إلا من خلال الدين».

وأمام هذا المأزق لم يجد العقل الوضعي بد من اللجوء إلى تضخيم الوسائل التي رأى أنها كفيلة بتحقيق الوجود الدنيوي السعيد للإنسان، واتخذها كغايات عليا للكوزمولوجيا التي ابتدعها، ورأى أن المجتمع البشري قادر - من

(1) فرويد. **الحب والحرب والحضارة والموت**، مرجع سابق، ص 44-45.

خلال إحداث التقدم المطرد الذي رأى أنه الغاية التي ينبغي أن يسعى إليها المجتمع الإنساني – على توفير مقومات هذا الوجود السعيد لإفراده في حيز هذه الدنيا وعلى هذه الأرض.

ب – ملامح قصور المقدمات المباشرة لفلسفات الإعلام الوضعية

لما كانت مقولات الفكر الاجتماعي الوضعي - وهي المقدمات المباشرة لفلسفات الإعلام - ليست إلا نتائج طبيعية لمقدماته المباشرة الماثلة في مسلمات الكوزمولوجيا العلمانية وغاياتها، فقد كان من الطبيعي أن تنعكس جوانب القصور التي شابت هذه المقدمات على مقولات هذا الفكر، وأن ينعكس قصور كل ذلك على مقولات فلسفات الإعلام الوضعية التي أفرزتها. وقد تبدّي انعكاس مقولات الكوزمولوجيا العلمانية على الفكر الاجتماعي في انحصار هم هذا الفكر في التنظير للغايات الدنيوية التي بشرت بها هذه الكوزمولوجيا في ظل إبعادها للآخرة من دائرة اهتمامها، والاعتماد على العقل وحده في القيام بهذا الجهد التنظيري في ظل إسقاط هذه الكوزمولوجيا للحقائق الموحى بها من حسبانها. . . ولما كان العقل قاصراً بطبعه، ولما كان يتبع في استقاء معارفه – في ظل هذه الكوزمولوجيا – منهجاً لا يقيم وزناً للجوانب الروحية المؤثرة في حياة الإنسان، وللقوى الغيبية الفاعلة في مسيرة التاريخ البشري، ولما كانت الظواهر البشرية – حتى لو استبعدنا منها الجوانب الروحية والغيبية – هي ظواهر معقدة ومتشابكة وعرضة للتغير والصيرورة بتغير الزمان والمكان. . . فقد كان من الطبيعي أن يشوب طروحاته حول الطبيعة البشرية وحول الكيفية التي يمكن خلالها إقامة كيان اجتماعي تحقق فيها غايتها الدنيوية قصوراً حتمياً.

ولم يقف قصور طروحات العقل الوضعي في هذا الصدد عند حد قصور الغايات التي سعى لبناء النظريات الاجتماعية المثلى التي تمكن من بلوغها، ولا عند قصور طروحاته المتعلقة بهذه النظريات، وإنما أمتد إلى وجود قصور في آليات الإلزام التي وضعها لضمان تطبيق طروحاته، لهذه النظريات على النحو الذي رسمته، وهو الماثل في افتقار هذه النظريات إلى آليات الإلزام التي يوفرها الدين، والتي تجعل الإنسان المؤمن يلزم نفسه أياً كان موقعه بالاضطلاع

بالدور المنوط به على النحو المرجو حتى لو كان باستطاعته الإخلال به والنجاة من أي إدانة في هذه الدنيا. وهذا ما يفسر لنا إخفاق الكثير من الطروحات السليمة نظرياً في أرض الواقع العملي.

جـ - انعكاسات قصور المقدمات التي قامت عليها فلسفات الإعلام الوضعية على بنية الفلسفات نفسها

كان من الطبيعي أن تفرز المقدمات القاصرة فلسفات إعلامية قاصرة، وقد تجلى هذا القصور في أكثر من مستوى.

1 - عجز المهام التي نظرت هذه الفلسفات لكيفية اضطلاع وسائل الإعلام بها عن الإسهام في تلبية متطلبات الوجود الإنساني على النحو الكامل، وذلك نتيجة طبيعية لقصور الغايات التي سعت هذه الفلسفات للتنظير لكيفية إسهام وسائل الإعلام في تحقيقها.

2 - لو افترضنا - جدلاً - سلامة الغايات التي سعت هذه الفلسفات لتحديد المهام التي يمكن أن تسهم في تحقيقها، فإن قصور المقدمات التي بنت هذه الفلسفات على هداها طروحاتها حول الكيفية المثلى التي يمكن لوسائل الإعلام الاضطلاع خلالها بهذه المهام - وهي الماثلة في مقولات الفكر الاجتماعي - جعلت الكثير من هذه الطروحات، سواء تلك التي تتعلق بممارسة الحرية الإعلامية أم بتملك وسائل الإعلام يتعاورها قصور حتمي، مما جعل، ويجعل، إسهام هذه الفلسفات في تحقيق الغايات العلمانية على النحو المأمول أمراً يصعب تحقيقه.

3 - لو افترضنا - جدلاً - سلامة الغايات التي سعت هذه الفلسفات للتنظير لكيفية الإسهام فيها، وسلامة طروحاتها حول الكيفية المثلى التي يمكن خلالها لوسائل الإعلام الاضطلاع بالمهام المنوطة بها في تحقيق الغايات، فإن هذا لا يكفي للحكم على هذه الفلسفات بأنها فلسفات سليمة، لأنها لازالت يتعاورها جانب مهم من جوانب القصور - مثلها في ذلك مثل باقي مناحي الفكر الوضعي - هو افتقارها لمنظومة متكاملة من آليات الالزام التي تضمن خلالها

تطبيق طروحاتها في أرض الواقع على النحو المرجو. والآلية المهمة التي تفتقدها هذه المنظومة – وهي أهم آليات الإلزام على الإطلاق هي آلية الإلزام الديني التي تجعل كل من له دور في العملية الإعلامية – صغر أم كبر – يلزم نفسه ذاتياً بالاضطلاع بالمهام المنوطة به على النحو الأمثل حتى لو كان موقناً أن عدم التزامه لن يكلفه شيئاً في هذه الدنيا لأنه قادر على الإفلات من الإدانة، لا لشيء إلا لكونه يعلم أن عدم التزامه هذا قد يكلفه الكثير في حياة الآخرة التي تسقطها الكوزمولوجيا العلمانية وكل نظرياتها من حسبانها تماماً.

هذه هي أهم أوجه القصور التي تتعاورها طروحات فلسفات الإعلام الوضعية، والتي جعلتها غير قادرة على تحقيق المهام التي تنتظرها مجتمعاتها منها على النحو المرجو وإن كان هذا لا ينفي أن هناك طروحات سليمة لهذه الفلسفات تمكنت من تحقيق نتائج إيجابية في أرض الواقع.

ثانياً: نتائج تتعلق بطبيعة الأرضية المعرفية المراد تبين مدى صلاحية نقل هذه الفلسفات إليها

لا يقف الحكم بعدم إمكانية نقل أي فلسفة من فلسفات الإعلام الوضعية من الأرضية المعرفية التي أفرزتها إلى الأرضية المعرفية الإسلامية، عند قصور هذه الفلسفات وعدم قدرتها على تحقيق المهام المنوطة بها على النحو المرتجى، وإنما يمتد إلى علة أخرى تتمثل في طبيعة الأرضية المعرفية الإسلامية المراد تبين مدى صلاحية نقل أي من هذه الفلسفات أو أجزاء منها إليها، والتي تتسم بالمغايرة الشديدة للأرضية المعرفية التي أفرزت هذه الفلسفات.

– فهي تغاير الأرضية المعرفية الوضعية بشكل كامل في المسلمات التي تنطلق منها، حيث أنها تؤمن إيماناً مطلقاً بوجود إله فاعل ومتدخل في تصريف كل صغيرة وكبيرة من شؤون هذا الكون، وتؤمن أنه أرسل رسلاً بمنهج محدد يشمل الحقائق الكلية التي ينبغي أن تهتدي بها الإنسانية في مسيرتها في هذه الحياة، وتؤمن بمسلمة أخرى وهي أن إله الكون – سبحانه – سوف يقيم حياة أخرى يكافئ فيها من التزم بمناهجه بالخلود في النعيم، ويعاقب من أعرض عنه

بالخلود في الجحيم. وهذا ما يجعل غاياتها لا تقف عند حيز تحقيق الوجود الدنيوي السعيد لأفرادها في هذه الدنيا فحسب - كما تهدف الكوزمولوجيا العلمانية - وإنما تمتد لتجعل من السعادة الأبدية في الدار الآخرة الغاية العليا لها.

ومن الطبيعي أن ينحصر هم العقل المسلم في التنظير للكيفية المثلى التي يمكن من خلالها للمجتمع المسلم أن يُؤمّن تحقيق هذه الغايات لأفراده، مهتدياً في ذلك بالكليات التي أمده الوحي بها والتي تحميه من الزلل والقصور الذي يمكن أن يقع فيه دونها.

وهكذا لا يقف التغاير بين الكوزمولوجيا الإسلامية والكوزمولوجيا العلمانية عند حدود المسلمات التي تقومان عليها، والغايات التي تسعيان إليها، وإنما يمتد إلى الاختلاف حول الكيفية التي ترسمها كل واحدة منهما لتحقيق غاياتها. وهذا لاشك يجعل نقل أي فلسفة من فلسفات الإعلام التي أفرزتها الكوزمولوجيا العلمانية أو أجزاء كاملة منها إلى الأرضية الإسلامية المغايرة لها مغايرة شديدة - حتى لو كانت قد أثبتت نجاحاً في الأرضية التي أفرزتها أمراً محكوماً عليه بالفشل، وإن كان هذا لا ينفي أن هناك إمكانية للإستفادة - لا النقل - من الطروحات التي ثبتت سلامتها في الواقع العملي في أي فلسفة من هذه الفلسفات .. بشرط ألاّ تتنافى مع أي قاعدة من قواعد الدين الإسلامي، وذلك في الحدود التي فصل الباحث في استعراضها في صلب الدراسة.

مميزات فلسفة الإعلام الإسلامي عن فلسفات الإعلام الوضعية :

بالإضافة إلى النتيجة الأساسية التي توصلت الدراسة إليها والمتمثلة في عدم صلاحية نقل أي من فلسفات الإعلام الوضعية، أو أجزاء كاملة منها من الأرضية المعرفية العلمانية إلى الأرضية المعرفية الإسلامية، هناك عدد من النتائج التي توصلت إليها الدراسة والتي تبرز تميز فلسفة الإعلام الإسلامي عن شتى فلسفات الإعلام الوضعية وهي:

أ - إن فلسفة الإعلام الإسلامي تعتمد في استقاء طروحاتها على منهج يضع جميع زوايا الوجود البشري في حسبانه (غيب وشهادة، روح ومادة، دنيا

وآخرة) على خلاف فلسفات الإعلام الوضعية التي تستقي طروحاتها من منهج لا يعترف إلا بزاوية واحدة من زوايا الوجود البشري، وهي تلك التي يمكن للحس إدراكها.

ب - إن فلسفة الإعلام الإسلامي تهتدي في كل طروحاتها بالكليات الموحى بها من قبل خالق الوجود بأسره مما يجنب عملية التنظير لها مواطن الخلل والقصور التي قد تشوب أي طرح تنظيري يعتمدعلى العقل وحده،على عكس فلسفات الإعلام الوضعية بل والفكر الاجتماعي الوضعي بأسره الذي ليس أمامه في هذا الصدد الا العقل وحده بقدراته النسبية المحدودة.

ج - إن هم فلسفة الإعلام في الإسلام لا يقف عند التنظير لكيفية المساهمة في تحقيق غايات تتمحور حول الجانب المادي للحياة الإنسانية في هذه الدنيا - كما تسعى لذلك فلسفات الإعلام الوضعية - إنما تمتد للمساهمة في تحقيق الغايات الحقيقية للإنسان في هذا الوجود، تلك التي لا تقف عند السعادة المادية وحدها ولا عند حيز هذه الدنيا وإنما تمتد لتشمل الإشباع والسعادة الروحية والحياة الأخرى حياة الخلود.

د - إن فلسفة الإعلام الإسلامي تمتلك منظومة متكاملة من آليات الإلزام التي تميزها عن أي فلسفة وضعية وتجعل الإلتزام بطروحاتها في أرض الواقع أمراً ميسراً.

هـ - إذا كان مدى التزام القائمين على تنفيذ أهداف فلسفات الإعلام الوضعية ينبع أساساً من مقدار المصالح الدنيوية التي تعود عليهم من الاخلاص في تنفيذها. وما يعنيه ذلك من إمكانية الانحراف عن هذه الأهداف، إذا ما كان ذلك يعود عليه بنفع دنيوي أكبر، فإن التزام القائمين على تنفيذ أهداف فلسفة الإعلام الإسلامي، لا تقف فقط عند تحقيق مصالحهم الدنيوية، وإنما تمتد لتصبح عنصراً مهما من عناصر تحقيق مصالحهم العليا في الآخرة، وأي إخلال بها - حتى وإن استطاع الإفلات من العقاب في هذه الدنيا، ومهما حق له من مصالح دنيوية عاجلة - لن تقارن نتائجه بالخسارة التي يمكن أن تصيبه في غاياته العليا في الآخرة،

وهذا ما يجعل أي شخص له علاقة بالعملية الإعلامية ولديه قدر من العقل والإيمان يتحمل واجباته كاملة حرصاً على تحقيق غايته العليا في الآخرة، قبل كونها مطيه لتحقيق مصالحة الدنيوية.

النقاط التي ينبغي مراعاتها للتمكن من بناء فلسفة إعلامية إسلامية متكاملة:

حتى يمكن للكتابات الإعلامية الإسلامية أن تقيم بناءً متكاملاً لفلسفة إعلامية إسلامية تبز فلسفات الإعلام الوضعية ينبغي أن تراعي هذه الكتابات عدداً من النقاط:

- الإلمام الكامل بالمقدمات الأساسية التي تشكل شتى ملامح فلسفة الإعلام الإسلامي، سواء المقدمات الكوزمولوجية الماثلة في المسلمات التي ينبغي أن تنطلق منها، أو الغايات التي ينبغي أن تسعى للتنظير لكيفية مساهمة وسائل الإعلام في تحقيقها.
- الإلمام بالمقدمات المباشرة الماثلة في مقولات الفكر الاجتماعي الإسلامي والتي ينبغي أن تشكل طروحات هذه الفلسفة - حول الكيفية المثلى التي يمكن لوسائل الإعلام أن تؤدي المهام التي ينتظرها المجتمع المسلم منها على الوجه الأمثل - على هداها.
- الاهتمام بوضع الآليات الكفيلة بالزام شتى أطراف العملية الإعلامية بالاضطلاع بالمهام المنوطة بها دونما تقصير أو اعتداء على الأطراف الأخرى، فانحراف الإنسان المسلم وعدم التزامه بما يمليه عليه دينه ومصالحه العليا أمر وارد وينبغي الاحتياط الكامل منه.
- الدراسة الواعية للفكر الاعلامي الوضعي وفهمه في إطار المقدمات التي شكلت ملامحه وذلك لمعرفة حقيقة هذا الفكر وعدم الأنبهار بطروحاته والاستفادة من الأفكار السليمة التي تتضمنها هذه الطروحات، وفي الحدود التي لا تتعارض مع أي طرح من طروحات الفكر الإسلامي.